الفلسفة والبيوإطيقا

تمهيد:

لم تعد الفلسفة بحثا نظريا تأمليا في قضايا ميتافيزيقية ومجردة كما كان يتصورها أفلاطون أو ديكارت،و منذ ذلك التمييز الذي أقامه كانط بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية، ارتبطت الفلسفة أكثر فأكثر وخاصة في حياتنا المعاصرة بالحياة العملية والتطبيقية، وترتب على ذلك بروز فروع فلسفية جديدة أهمها فلسفة الأخلاق و الفلسفة السياسية وفلسفة الحقوق وفلسفة الثقافة وفلسفة الفعل والفلسفة واليومي والأخلاقيات التطبيقية، هذه الأخيرة التي تفرعت بدورها إلى فروع مختلفة أهمها الأخلاق البيولوجية ( البيوإطيقا) والأخلاق البيئية وأخلاق الأعمال...، وهذا يشير إلى توسيع ميدان الأخلاق في الفلسفة إلى مجالات عملية وعلمية مثل البيولوجيا والبيئة والأعمال... وباعتبار البيوإطيقا مجال بحث فلسفي أخلاقي يندرج ضمن الأخلاقيات التطبيقية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: ماهي الأخلاقيات التطبيقية ؟ وما هي البيوطيقا ؟

1- تعريف الأخلاقيات التطبيقية:

يعرّف القاموس الأخلاقيات التطبيقية " على أنها معايير ثابتة للسلوك والحكم الأخلاقي. تحكم هذه المعايير السلوك المهني للموظف في أي مهنة،وخاصة أولئك المسؤولين عن التفاعل مع الجمهور." هذا التعريف يشير الى علاقة الأخلاق بكل الأفعال العملية ويصفها بالطابع المعياري، أي القواعد والقوانين التي توجه الفعل في مجال معين، ومن هنا تكتسي طابعها " الديونطولوجي" أي الواجبي بالمعنى الكانطي، ولكن ما يجب معرفته كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف بول ريكور، هو أن كل أخلاق واجبية تتأسس على الأخلاق "التيليولوجية" أو الغائية للجماعة أو المجتمع، أي أن كل أخلاق واجبية تستمد قوانينها وقواعدها من الأهداف والغايات العامة والخاصة للمجتمع، ومن هنا استخلص ريكور جدلية الأخلاق الغائية والواجبية للأفعال التطبيقية.

إن صفة التطبيق تشير أيضا إل الجانب العملي بكل مظاهره الحسية والفعلية والتي تقبل هذا التوجيه الأخلاقي، وهو هنا الفعل الإنساني في علاقته بالحياة البيولوجية والمؤسسات الاجتماعية والبيئية. وهذا الارتباط هو الذي أنتج فروع الأخلاقيات التطبيقية المعاصرة كمباحث فلسفية أساسية مثل الأخلاق البيولوجية أو " البيوإطيقاBioéthique-"، و" الأخلاق الطبية L’éthique médicale-، و" الأخلاق القضائية- L’éthique judiciaire "، و" أخلاق الأعمال-L’éthique des affaires، وأخيرا، " الأخلاق البيئية-.L’éthique de l’environnement.

2- تعريف البيوإطيقا:

لغة: البيوإطيقا كلمة مركبة من شطرين: البيو bios التي تعني الحياة أو البيولوجيا و Ethicos التي تعني الأخلاق، فهي في الجملة الأخلاق البيولوجية أو أخلاق الحياة bioéthique.

اصطلاحا: - جاء في قانون الصحة الجزائري تعريفا للبيوإطيقا بأنها " كل التدابير المرتبطة بالنشاطات المتعلقة بنزع الأعضاء وزرعها والأنسجة والخلايا والتبرع بالدم البشري ومشتقاته والمساعدة الطبية على الإنجاب والبحث البيو-طبي " هذا يعني أن المسائل الأولى للبيوإطيقا قد نشأت في الحقل الطبي، حيث تطرح التساؤلات الأخلاقية حول الأعمال الجديدة التي يقوم بها الأطباء في معالجة مرضاهم.

* "البيوإطيقا هي بحث أخلاقي تطبيقي في القضايا المطروحة من طرف التقدم البيو-طبي."
* " البيوإطيقا هي الدراسة المتعددة الاختصاصات لمجموع الشروط التي يستوجبها تسيير مسؤول للحياة الإنسانية ( ) في إطار التطورات السريعة والمعقدة للمعرفة وللتقنيات البيو-طبية."
* "البيوإطيقا هي البحث عن حلول للخلافات القيمية (صراع القيم ) في عالم التدخلات البيو-طبية. "
* غي ديران: البيوإطيقا هي " ممارسات وخطابات، يكون موضوعها توضيح وحل قضايا ذات المغزى الإطيقي، التي يثيرها التطور التقنو-علمي في مجال الصحة والحياة الإنسانية "
* جاكلين روس: " البيوإطيقا هي البحث عن جملة المطالب لاحترام الحياة الانسانية والشخصية وتقدمهما في القطاع الحيوي- الطبي ( الاخلاق الحياتية )

**استنتاج**: لمفهوم البيوإطيقا دلالات متعددة يمكن أن نحددها في مستويين أساسيين:

* مستوى دقيق هي أن البيوإطيقا " بحث أو دراسة ذات بعد أخلاقي تتجه إلى معالجة ومناقشة المشكلات الناجمة عن التقدم العلمي الحاصل في البيولوجيا والطب خاصة التقنيات الجديدة المستخدمة في المجال البيو-طبي ( البيو- تكنولوجيا، النانو-تكنولوجيا ) وآثارها المتشعبة على حياة الإنسان "
* مستوى أوسع البيوإطيقا هي " تفكير إطيقي في الحياة عامة وأينما كانت في طبيعتها وأصلها، في شروطها وظروفها، في نوعيتها وجودتها وإمكانيات تعديلها وتحسينها "

نشأة مفهوم البيوإطيقا:

يرجع الباحث (غي ديران ) في كتابه: " مقدمة في البيوإطيقا: التاريخ والتصورات والوسائل." نشأة كلمة البيوإطيقا إلى سنة 1970 " في مقال لعالم السرطان الأمريكي فون رونسيلار بوتر بعنوان ( البيوإطيقا علم البقاء)، والذي ما لبث أن أدرجه ضمن كتابه " البيوإطيقا: جسر نحو المستقبل " وأبرز هذا العالم التداخل بين حقلين أساسيين هما الأخلاق ( ethikos ) من جهة، والحياة ( bios ) من جهة أخرى، حيث يفرض التطور العلمي والتقني في مجال البيولوجيا والطب تدخل القيم الأخلاقية والإنسانية. يقول العالم بوتر: " البيوإطيقا كما أتصورها تبذل ما في وسعها لإنبثاق حكمة أو علم أو معرفة متعلقة بكيفية استخدام العلم لخير المجتمع، على أساس من معرفة واقعية للطبيعة البيولوجية للإنسان وللعالم البيولوجي".

لقد نشأت البيوإطيقا عن جدل بين إتجاهين كبيرين: أحدهما يتبع النظرية الداروينية التي تنظر إلى الإنسان كحيوان بيولوجي متطور، و تسمح بإجراء كل التجارب العلمية والتقنية عليه، وبالتالي، تعطي أولوية في البحث البيولوجي والطبي للعلم على الأخلاق، حيث تأسيس الأخلاق على العلم المتغير جعلها نسبية ومتغيرة، واختلط على الناس الحكم الأخلاقي الصحيح فيما يخص القضايا التي تطرحها البيولوجيا والطب مثل الهندسة الوراثية وإمكانية تغيير المورثات، وتقنيات النانو واستخدامها في معالجة الأمراض، ونقل الأعضاء وزرعها... وكل هذه المسائل أدخلت الأخلاق في إحراج.

أما الاتجاه الثاني، فهو الاتجاه الذي يعطي أولوية للأخلاق على العلم ويتساءل عن قيمة الشخص الإنساني في الميدان البيولوجي والطبي، وقد استخدم هذا الاتجاه فلسفة كانط التي ترفض استخدام الإنسان كوسيلة مادية لأغراض نفعية، وتعتبر الإنسان غاية في حد ذاته، وتبني على أساس ذلك مجموعة من القواعد والقوانين الأخلاقية التي تخدم تلك الغاية، ولقد تحولت هذه الأخلاق إلى أخلاق ديونطولوجية تحكم ميداني البيولوجيا والطب، وهذا ما نسميه البيوإطيقا أي " أخلاقيات البيولوجيا " الذي كان سؤالها المحوري: إلى أي مدى يجوز تسخير العلم للتحكم في هذه المجالات ؟

وظهر الفكر البيوإطيقي على المستوى السياسي أيضا بعد التجارب الطبية التي أجراها النازيون على الإنسان خلال الحرب، حيث قامت محكمة نومبورغ بعد الحرب العالمية الثانية بمحاكمتهم، وبادرت فرنسا نتيجة لذلك بإنشاء اللجنة الوطنية الاستشارية للإيطيقا في علوم الحياة والصحة CCNE، ثم توسعت هذه اللجنة في العديد من الدول الأوروبية إلى أن تأسست " المجموعة الأوروبية للإطيقا والعلوم والتكنولوجيات الجديدة".

موضوع البيوإطيقا:

البيوإطيقا أو أخلاقيات البيولوجيا أو أخلاقيات الحياة مصطلح يشير إلى إتساع موضوعها ليشمل كل ما يتعلق بالجانب الحيوي في علاقته بالمجال الأخلاقي، وهذا يعني أنها تتسع لمجالات الحياة كلها انطلاقا من الحياة النباتية وصولا إلى الحياة الإنسانية المتطورة، لكن الباحثين درجوا من الناحية التاريخية على حصر موضوع البيوإطيقا في مجال الطب والصحة عامة، ويتزعم هذا الاتجاه " هيليغرز " الذي يبرر ذلك بكثرة مواضيع مجال الصحة والطب إلى حد أن البيوإطيقا لا تستطيع تجاوزها إلى غيرها من المسائل الحيوية الأخرى. أما الباحث غي ديوران حاول أن يحدد مواضيعها على أساس إجماع أغلب الباحثين، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام:

1. النواة المركزية: يقصد بها جملة المواضيع الأساسية في البيولوجيا عامة أو الطب خاصة والتي أحدثت إحراجا أخلاقيا مثل: **الاجهاض عامة والإجهاض العمدي**، **التشخيص المبكر للجنين** وهو إخضاع الجنين في حالة التكوين من ثمان خلايا إلى إجراء إختياري وراثي وتقديري، بهدف تفادي تشوهات أو أمراض وراثية، كذلك مسالة القتل الرحيم أو الموت الرحيم الذي يهدف إلى توفير وفاة سهلة خالية من الألم. وقضية **الإخصاب الصناعي الذي يتم بموجبه وضع مني الزوج أو مني أحد المتبرعين في المسالك الطبيعية للمرأة في مرحلة التبويض. ومن مظاهر الإخصاب الصناعي: مسألة البنوك المنوية وهي عبارة عن أوعية صلبة يحفظ فيها المني عن الحرارة ويملأ بالأزوت السائل الذي يبقيه في الدرجة 1960، والذي يمكن أن يستخدم لاحقا. وكذلك مسألة أطفال الأنابيب أو الإخصاب خارج الرحم، وهو تلقيح بويضة المرأة في أنبوب إصطناعي، وأخيرا مسألة الأم الحاضنة: وهي قبول إمرأة ما أن تحمل طفلا لزوجين، أي أن تحمله بدلا عن إمرأة عاقر غالبا مقابل مبلغ مالي.**
2. **مواد لصيقة بالنواة المركزية: وتشمل المواضيع الحيوية التي تفرض تفكيرا أخلاقيا أهمها:**

* **منع الحمل ووسائله، تباعد الولادات**
* **الحرب والأبحاث حول الأسلحة البيولوجية والكيميائية، التعذيب، الحكم بالإعدام.**
* **براءات الاختراع الحيوية، الأبحاث التي تجري على الحيوانات، علم البيئة.**

1. **مواضيع ثلاثية الأبعاد: تهتم البيوإطيقا بالحالات الشخصية، وبذلك تعنى بالقرار الشخصي للمريض والمتدخلين في حالته الصحية وبالحوار الذي يجري بينهم والقرار الذي يتوصلون إليه في آخر المطاف. كما تدرس بالمواضيع المحتملة في البحث، وهذا مجال الميكرو-أخلاقيات.**

**مجالات البيوإطيقا:**

**يمكن حصر مجالات البيوإيطيقا التي تنبثق عن موضوعاتها المختلفة في ثلاثة مجالات هي:**

1. **أخلاقيات العيادة:**

**يرى الباحث الأمريكي (دفيد روي ) ارتباط " الأخلاقيات العيادية بكل ما يواجه الأطباء والفرق الطبية من قرارات وشكوك واختلافات قيمية ومعضلات، وذلك سواء أمام أسرة المرضى أو داخل غرفة العمليات أو في مكتب الاستشارة الطبية أو في العيادة أو حتى في منزل المريض " وهذا يعني أن مواضيع أخلاقيات العيادة تتعلق بالقضايا التي يصعب اتخاذ قرار فيها مثل قضايا: الأطفال حديثي الولادة بتشوهات خطيرة، ووسائل المحافظة على تأمين حالات الغيبوبة، والحالات المتقدمة للمرضى، والبوح بالأسرار الخاصة بالمريض لعائلته...وهذا يوضح أن أخلاقيات العيادة تتعلق بثلاثة أطراف: المريض، الطبيب، المجتمع. وبالعلاقات الإنسانية والأخلاقية التي تربطها، فعلى مستوى المريض تهتم أخلاقيات العيادة بوضعيته الصحية وآلامه وتاريخه الشخصي ووضعه العائلي. وتعنى أيضا بالطبيب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها وخاصة الصدق فيما يقول ويفعل مع مرضاه وأهاليهم، وأخيرا تعنى باحترام أخلاق المجتمع داخل العيادة، الأمر الذي أدى إلى التزام العيادات بمبادئ ارشادية وأخلاقية تضعها المؤسسة تتضمن تفكيرا حول ما يجب فعله في سائر المسائل المطروحة في العيادة.**

1. **أخلاقيات البحث العلمي:**

أخلاقيات البحث العلمي مفهوم قديم لطالما تكلم عنها المفكرون والفلاسفة، وهي تتعلق بما يتميز به الباحث من تجرد وموضوعية وصدق ونزاهة وعدل في تناوله لمواضيع بحثه، ولكن هذه الأخلاقيات في مجال البيوإطيقا تزداد أهمية أكثر، لأن البحث العلمي لا يقع على أشياء مادية صلبة كما هو حال الفيزياء أو الكيمياء، بل يقع على الجانب الحيوي في علاقته بالجانب الإنساني، فأخلاقيات البحث العلمي إذن تتعلق ببيان الجوانب الأخلاقية في الأبحاث والتجارب العلمية المنصبة على الحياة البيولوجية البشرية. وفي هذا الصدد يرى ديفيد روس أنه علينا الوقوف على ثلاثة قضايا أساسية: تحقيق سعادة أفراد المجتمع ومصلحتهم المشتركة، مراعاة مسؤولية الطبيب إزاء مرضاه، احترام مطالب المرضى الذين يرغبون في الاستفادة مما يستجد من علاج. ولتكريس مثل هذه الأخلاقيات في البحث أنشأت الدول المتقدمة جمعيات منها: اللجنة الأخلاقية الأمريكية سنة: 1974، واللجنة الوطنية الاستشارية لأخلاقيات علوم الحياة بفرنسا سنة 1983.

ج- أخلاقيات الصحة العمومية:

إن قضايا مثل الإجهاض والموت الرحيم وتقنيات الانجاب الحديثة والهندسة والعلاجات الوراثية واستخدام تقنيات النانو لا ينحصر تأثيرها على من يشاهدها ويستخدمها فقط، بل يتسع ليمس بالصحة العمومية في المجتمع، ومن هنا تصبح قضايا سياسية واجتماعية تتطلب تدخل الحكومة، ويميز الباحثون في إطارها ثلاث مستويات:

* الصحة العمومية: تطلق على مجموع التدابير الوقائية والعلاجية والتربوية والاجتماعية التي تهدف إلى المحافظة على صحة الفرد والجماعة وتحسينها ومحاربة ما يعترضها من أمراض معدية.
* منظومة العلاج: يقصد بها المبادئ الموجهة والتنظيم الفعلي القائم للعلاج الصحي في بلد ما.
* توزيع الموارد الصحية: وتعني توفير الموارد اللازمة للعلاج سواء كانت مادية أو بشرية وتوزيعها توزيعا عادلا من طرف السلطات المختصة.

**البيوإطيقا والعلوم والمعارف الأخرى:**

من خلال تعرفنا على مفهوم البيوإطيقا وموضوعها ومجالاتها يتبين أنها كفرع من الأخلاقيات التطبيقية قد نشأت عن التطورات العلمية والتقنية المعاصرة والتساؤلات الفلسفية والأخلاقية حولها لاسيما في المجال الحيوي الإنساني، وهي كما تقول جاكلين روس تدل " على خطاب متعدد المواقف، ومتعدد الاختصاصات، بما أنها تحضر في قلب تمازج حقول معرفية شتى، كما أن البيوإطيقا لا تعني فقط الفئات المختصة من باحثين وأطباء، بل تتجاوز كذلك إلى الرأي العام المدني و الاجتماعي بما أنه هو موضوع التطبيقات البيوتكنولوجية " فهي إذن ترتبط بعدة علوم ومعارف أهمها ما يلي:

* البيولوجيا والعلوم الطبية: البيولوجيا هو علم الحياة أو علم الكائنات الحية: الإنسان، الحيوان والنبات، ويدلنا تاريخ هذا العلم مع كلودبيرنار وباستور كيف انتقل من الدراسات الوصفية إلى الدراسات العلمية والتجريبية، ومع تطور الوسائل التقنية أصبح في الإمكان دراسة الظواهر البيولوجية دراسة علمية تماما مثلما ندرس في الكيمياء والفيزياء، وقد ترتب على ذلك تنوع العلوم البيولوجية من علم الحيوان والنبات إلى العلوم الطبية وعلوم الجراحة والوراثة وتقنيات النانو، ومن دراسة الظواهر الكبيرة ( الماكروفيزيائية ) إلى الظواهر الصغيرة ( الميكروفيزيائية ) وبدأت تطرح هذه العلوم المشاكل المتعارضة مع الأخلاق والقوانين الإنسانية خاصة في الطب مثل الموت الرحيم، واستخدام تقنيات النانو في العلاج، وزرع الأعضاء، والهندسة الوراثية، وإمكانية تغيير الجينات، والاستنساخ...ومن هنا تأتي البيوطيقا كنتيجة لهذا التقدم العلمي الواسع لتعالج مثل هذه المشكلات، وستظل البيوإطيقا تعالج كل المشاكل الحيوية والتقنية والطبية التي تطرح أسئلة أخلاقية.
* العلوم القانونية: ترتبط البيوإطيقا بحقوق الإنسان، وبالتالي بالقوانين المدنية والشرعية التي تنظم تلك الحقوق وتحدد الواجبات، حيث أصبح الإنسان في العلوم البيولوجية والطبية المعاصرة محل تساؤل من حيث التجارب التي تجرى على جسمه ( تعديل المورثات، الاستنساخ، زرع الأعضاء، التجميل، الإنجاب الإصطناعي، الموت الرحيم...) ومن حيث الوسائل التقنية المستخدمة في حل هذه المشكلات، الأمر الذي جعل كرامة الإنسان وحقوقه في مثل هذه الحالات محل تفكير قانوني وشرعي، ومن الأدلة على ذلك أن القانون الشرعي الإسلامي يضع هذه القضايا ضمن فقه النوازل، أي القضايا المستجدة التفصيلية التي ليس لها حكم شرعي مسبق، وقد اختلف الفقهاء ورجال القانون في الحكم عليها، من ذلك مثلا أنهم ميزوا بين الجراحة التجميلية الحاجية، أي الناتجة عن حاجة ضرورية مثل تشوه أنف أو عين إنسان، وبين الجراحة التجميلية التحسينية التي تستهدف تجميل أعضاء جسم الإنسان. أما القوانين المدنية فهي تحرص على حرية المرضى وعدم تهميشهم واحترام آرائهم فيما يتعلق بمصيرهم الطبي...
* علم السياسة:

ترتبط مسائل البيوإطيقا أيضا بالسياسة، حيث تعنى سياسات الحكومات بالصحة العامة للمواطنين، وتوفر الوسائل والموارد الضرورية التي تكفل تحقيقها، وتزداد مسؤوليات الحكومات أكثر مع ما تطرحه المشاكل البيو-تكنولوجية والبيو-طبية من إحراج أخلاقي وإنساني، ولهذا كثيرا ما تستعين هذه الحكومات بالجمعيات والمنظمات المتخصصة التي تساعد على حلها.

* الفلسفة: تتمثل علاقة الفلسفة بالبيوإطيقا في أن هذه الأخيرة تعنى بتطبيق الأخلاق والقيم على المسائل البيو-طبية والبيو-تكنولوجية، ومن المعلوم أن الأخلاق خاصة والقيم بوجه عام مبحث أساسي في الفلسفة يخضع الفعل الإنساني إلى معايير أخلاقية، ويدعونا إلى احترام الشخص الإنساني والحرص على كرامته، ومع ظهور البيوإطيقا تحولت الأخلاق الفلسفية من النظري إلى التطبيقي، أي لم تعد الأخلاق مجرد بحث عن قيم الخير المثلى الثابتة مع أفلاطون، ولا الغايات القصوى للأفعال الإنسانية مع أرسطو، بل أصبحت ابتداء من كانط واجبات وقوانين تحترم الشخص الإنساني في حد ذاته، يقول كانط: " إعمل دائما بحيث تجعل من عملك قانونا كليا للإنسانية "، وبهذا ساهمت الفلسفة في التأسيس للأخلاق الواجبية والقانونية التي يجب أن تحكم ميدان البيولوجيا والطب ضد النزعات البراغماتية والتطورية والوضعية التي تفصل العلوم البيولوجية والطبية عن القيم الأخلاقية.

ولقد استمرت النزعة النقدية الكانطية مع (هابرماس ) الذي حاول تحرير المجال التداولي والإتصالي الإنساني من قبضة المكننة والتشيؤ والاغتراب، وأكد في المقابل الحاجة إلى المناقشة والحجاج والنقد في كل المسائل بما فيها المسائل البيوإطيقية التي تحتاج بالنسبة له أيضا إلى الحق في الرفض أو القبول بالنسبة إلى المرضى، فالتعديل الجيني وإن كان يهدف إلى تحسين النوع الإنساني فإنه يتطلب حرية الإنسان في هذا القرار. يقول هابرماس: " لا قبل للإنسان أن يتحمل أن تكون حياته ومستقبله محددين جينيا، مع ما نعلم من مدلول ذلك بالنسبة إلى حريته، إذ لا يمكن للفرد أن يبقى مؤمنا بحريته إذا كان مستقبله ومآل أفعاله معلومين له من قبل." وهكذا تساهم الفلسفة في نقد العلم والتقنيات المرتبطة به وتحارب العقل الأداتي والبراغماتي في النظر إلى الانسان.